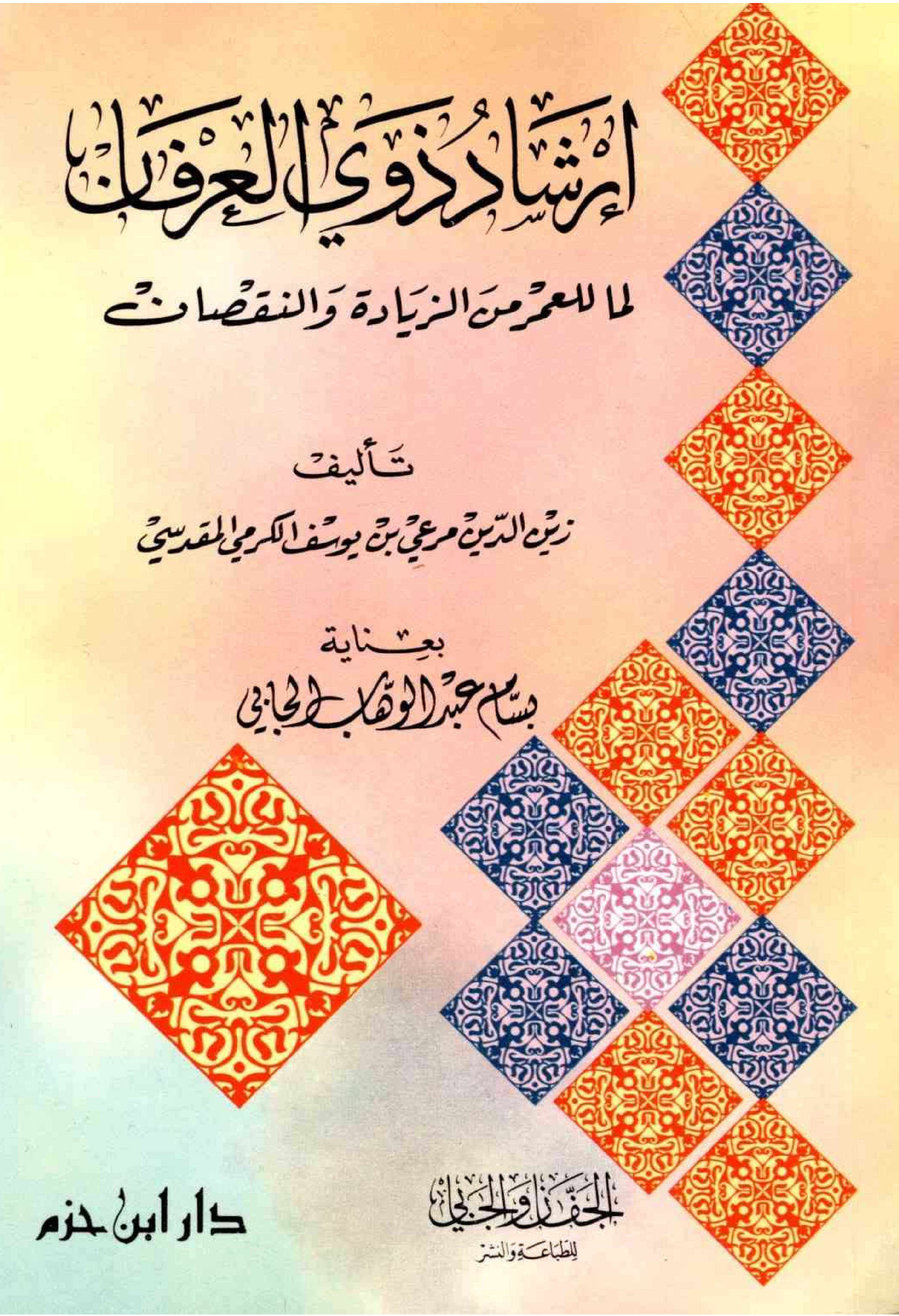


إرشاد ذوي العرفان
لما للعمر من الزيادة والنقصان
تأليف
زين الدين مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي
بعناية
بسام عبد الوهاب الجابي
الجفان والجابي
للطباعة والنشر
دار ابن حزم

إرشاد ذوي العرفان

لما للعمر من الزيادة والنقصان



الطّبعَة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



AL-JAFFAN & AL-JABI

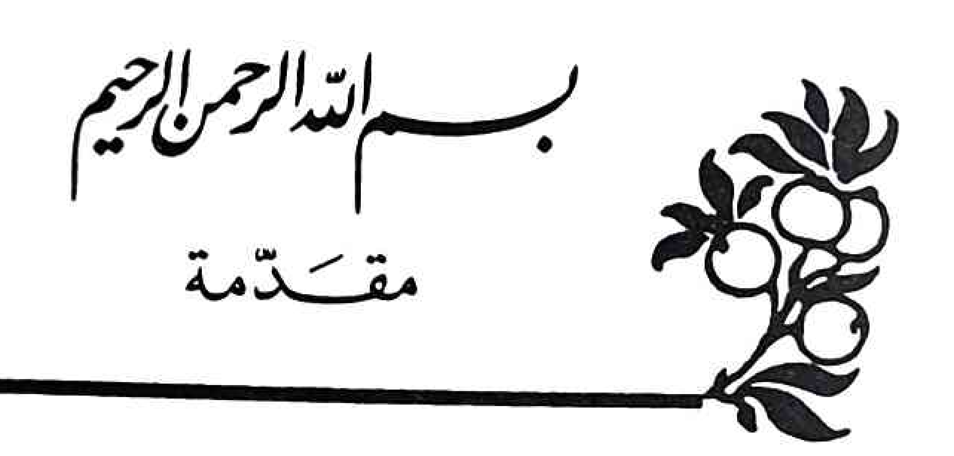
Printers - Publishers

عنوان المراسلة :

Correspondence - Address :
JAFFAN TRADERS P.O.Box : 4170 Limassol - Cyprus
Telex : 4963 JAFFAN Cy. Fax : 357 - 5 - 341160 , Phone : (05) 375345

دار ابن حزم للطّباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون : ٨٣١٣٣١



مقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

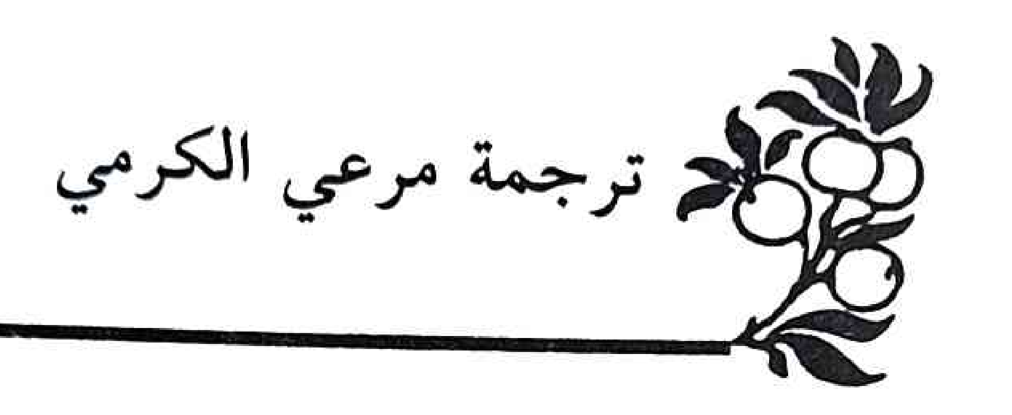
وبعد؛

فقد توفي والدي، رحمه الله وجعل الجنة مثواه، في ١٧ تموز/ يوليو سنة ١٩٩٢ م، بإصابةٍ صحِّيَّةٍ إِثْرَ ظروف كان لعدد من الناس دورٌ في توفيرها، بل في حَبْكِها وَسَبْكِها، وكانت وفاته سبباً لسؤال طرحه كثيرون ممّن علموا وقائع الوفاة.

وكان لواذي في الرجوع إلى كتب العقائد كي أقف على جليّة الأمر، فوجدتُ كتابَ الشيخ مرعي

الحنبلي «إرشاد ذوي العرفان» خير مجيب، فحرصْتُ على توفيره بين أيدي الناس، كي يجدُوا الجوابَ الشافي إنْ عَرَضَ لهم ما عَرَضَ لي من التساؤل.

بسام عبد الوهاب الجابي



ترجمة مرعي الكرمي

إن أفضل ترجمة مناسبة لهذه الرسالة هي ما نشر في مجلة «البصائر» العدد الخامس، الصفحات: ٥٥ ـ ٧٢ بقلم فضيلة الأستاذ شعيب الأرنؤوط حفظه الله، وهي التالي[١]:

اسمه ونسبه:

هو الإمامُ زَيْنُ الدينِ مَرْعِيُّ بن يوسُفَ بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن يوسف بن أحمد الكَرْميُّ المقدسي ـ نسبة إلى طور كرم في فلسطين ـ.

---

(١) مع بعض تصرّف يناسب تقديم الكتاب وزمن نشره.

مولده ونشأته:

ولد ـ رحمه الله ـ في قرية طور كرم[1] بالقرب من نابلس، ثم انتقل منها إلى القدس، ثم ارتحل منها إلى مصر، وبقي بها إلى أن تُوفي.

مذهبُه وعلمه، وثناءُ العلماءِ عليه:

كان ـ رحمه الله ـ في الفروع على مذهب الإمام المبجَّل أحمد بن حنبل، عارفاً به، ومنافحاً عنه، وعاشقاً له، يدلّ على ذلك قولُه:

لَئِنْ قَلَّدَ النَّاسُ الأئمَّةَ إنني
لَفِي مذهبِ الحَبْر ابن حنبلِ راغبُ

---

(١) تعرف اليوم عند أهل فلسطين بـ «طول كرم» ـ باللام ـ، وتقع هذه البلدة إلى شمال غرب نابلس، بينها وبين البحر سهول خصبة، كانت تسمى في عهد صلاح الدين الأيوبي «الطراز الأخضر». ولم تذكر مصادر ترجمة المؤلف التي وقفنا عليها تاريخ مولده.

أُقلِّـــدُ فتـــواهُ وأعشـــقُ قـــولَـــهُ
وللنـــاسِ فيمـــا يعشقـــونَ مـــذاهـــبُ

وهو ـ رحمه الله ـ أحدُ أكابر علماء الحنابلة في عصرِه، وكان إماماً، محدِّثاً، فقيهاً، ذا اطِّلاعٍ واسعٍ على نقول الفقه، ودقائق الحديثِ، ومعرفةٍ تامةٍ بالعلوم المتداولة.

وقـال الأستـاذ الـزِّرِكْلـي فـي حـاشيـة كتـابـه «الأعـلام»: ٧/ ٢٠٤: وفـي تعليـق الشيـخ عبـدالله البسَّام: إنه ـ يعني الشيخ مرعيّاً ـ كان مقلِّداً متقيِّداً، لا يخرج عن المذهب الحنبلي قيد شعرة واحدة.

ونَعَتَهُ صـاحـبُ كتـاب «النعـت الأكمـل»: بـأنـه شيـخُ مشـايـخ الإسـلام، أوحـد العلمـاء المحققيـن الأعـلام، واحـد عصـره وأوانـه، ووحيـد دهـره وزمانه، صاحب التآليف العديدة، والفوائد الفريدة، والتحـريـرات المفيـدة، خـاتمـة أعيـان العلمـاء

المتأخرين.. ثم أطال في الإطراء وإسباغ الألقاب والأوصاف عليه، ثم قال يمدحه:

حَـوَىٰ السَّبـقَ فـي كـلِّ المعـارفِ يـا لَـهُ
إمــامٌ هُمــامٌ حــازَ كــلَّ العــوارفِ
وقــد صــارَ ممنــوحــاً بكــلِّ فضيلــةٍ
بظِــلِّ ظليــلٍ بــالعَــوَارِفِ وارِفِ
وحــازَ بِجــدٍّ واجتهــادٍ ومِنْحَــةٍ
لَمــا عنــه حقّــاً كَــلَّ كُــلُّ الغطــارفِ
سقــىٰ اللّــهُ تــربــاً ضمَّــه وَابــلَ الحيــا
بِجَنَّــاتِ عَــدْنٍ آمِنــاً مِــن مخــاوفِ
وَلاَ زَالَ رضْــوَانُ الإلٰــهِ مبــاكِــراً
ثــرىً ضَمَّــهُ مــا حَــنَّ بيــتٌ لِطــائــفِ

وكان الشيخُ في الاعتقادِ والأصولِ على مذهبِ السلف الصالح - رضوان الله عليهم - مِن التسليمِ المطلق للنصوص، وعدم تأويلها وصرفها عن ظاهرها كما يظهر جلياً في كتابه «أقاويل الثّقات»..

شيوخه:

أَخَذَ ـ رحمه الله ـ العلمَ عن شيوخ عَصْرِهِ.

ففي القدس، أخذ الفقهَ عن الشيخ محمد المَرْداوي، وعن القاضي يحيى بن موسى الحِجَّاوي.

وفي مصر، أخذ الحديثَ والتفسيرَ عن الشيخ الإمام محمد بن محمد بن عبدالله القَلْقَشَنْدي المعروف بمحمد حجازي الواعظ، والمحقِّقِ أحمد بن محمد الغُنَيْمي، وكثير من المشايخ المصريين، وأجازوه[1].

إقراؤه وتدريسُه:

تصدَّر المصنف ـ رحمه الله ـ للإقراء والتدريس بجامع الأزهر، ثم تولّى المشيخة بجامع السلطان

(١) ولم نقف فيما بين أيدينا من مصادر ترجمته على ذكر لتلاميذه، مع أنه كان متصدراً للتدريس كما سيأتي.

حسن، ثم أخذها عنه عصريُّه العلاّمةُ إبراهيم بن محمد المصري الشافعي، الملقب ببرهان الدين الميموني، ووقع بينهما ما يقع بين الأقران، وألَّف كلٌّ منهما في الآخر رسائل.

مصنفاتـه:

كان ـ رحمه الله ـ منهمكاً في العلوم انهماكاً كليّاً، فقطع زمانه بالإفتاء والتدريس، والتحقيق والتصنيف، فسارت بتآليفه الركبان، ومع كثرة أضداده وأعدائه ما أمكن أن يطعن فيها أحدٌ، ولا أن ينظرَ بعينِ الإزراءِ إليها.

وتآليفه ـ رحمه الله ـ كثيرة متنوعة الأغراض:

أ ـ المطبوعة:

١ ـ «إرشاد ذوي العرفان، لما للعمر من الزيادة والنقصان».

طبع للمرة الأولى بتحقيق الأستاذ مشهور حسن سلمان، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

٢ ـ «أقاويل الثقات، في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات».
طبع بتحقيق الأستاذ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥ م.

٣ ـ «بديع الإنشاء (الإنشاءات) والصفات، في المكاتبات والمراسلات» ويعرف بـ «إنشاء مرعي».
له مخطوطات كثيرة، وطبع طبعات كثيرة.

٤ ـ «دليل الطالب، لنيل المطالب».
اختصره من كتاب «منتهى الإرادات» لتقي الدين محمد بن أحمد بن النجار الحنبلي.
طبع مع تعليقات لمحمد بن مانع في دمشق، المكتب الإسلامي سنة ١٩٦١ م، وطبع طبعات أخرى.

٥ ـ «الشهادة الزكية، في ثناء الأئمة على ابن تيمية».

طبع بتحقيق نجم عبد الرحمن خلف، في مؤسسة الرسالة ودار الفرقان عام ١٩٨٤ م.

٦ ـ «غاية المنتهى، في الجمع بين الإقناع والمنتهى».

طبع في دمشق عام ١٩٥٩ م في ثلاثة أجزاء، منشورات دار السلام.

٧ ـ «الفوائد الموضوعة، في الأحاديث الموضوعة».

طبع بتحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، سنة ١٩٧٧ م.

٨ ـ «قلائد المرجان، في بيان الناسخ والمنسوخ من القرآن».

طبع في الكويت سنة ١٩٨٠ م بتحقيق سامي عطا حسن.

٩ ـ «الكواكب الدرّية، في مناقب المجتهد ابن تيميّة».

وهو ترجمة لحياة شيخ الإسلام ابن تيمية جمعها من «مناقب ابن تيمية» لابن عبد الهادي، والبزّار، وأحمد بن الفضل.

طبع في مطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٢٩ هـ.

ب ــ المخطوطة:

١ ـ «إتحاف ذوي الألباب، في قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)﴾».

يوجد منه نسخة في مكتبة أسعد أفندي (الملحقة بالمكتبة السليمانية في إستنبول) ١٣٠٠، وفي الموصل ١٠٠ و ١٣٧.

٢ ـ «إحكام الأساس، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾».

منه نسخة في القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية ٣/ ٢٧٠.

٣ ـ «إرشاد ذوي الأفهام (العرفان)، لنزول عيسى عليه السلام».

منه نسخة في باتنا ٢/ ٤٢٨.

٤ ـ «بهجة الناظرين، في آيات (آية) المستدلين».

يشتمل على العجائب والغرائب، فرغ منه سنة ١٠٢٢ هـ.

منه نسخة في غوطة (بمدينة هالة الألمانية الشرقية) ٧٤٦، وفي فينة ١٦٦٦، وفي جامعة برنستون غاريت ٧٧٢، وفي الإسكندرية ٨ مواعظ، وفي الفاتيكان (فيدا) ٩٠٣، وفي المتحف البريطاني Or ٥٩٤٨، وفي بريل (هوتسما، الموجودة في جامعة برنستون) ٢/ ٩٩٨، وفي المكتبة الخالدية (القدس) ٣٢،

وفي مكتبة الأوقاف (بغداد) ٩٦٧٨، وفي القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية الموجودة في الدار ١/ ٢٧٤.

٥ ـ «تحقيق البرهان، في إثبات حقيقة الميزان».

منه نسخة في باريس ٢٠٢٦، وفي باتنة ٢/ ٤٢٨.

٦ ـ «تحقيق البرهان، في شأن الدخان الذي يشربه الناس الآن».

منه نسخة في غوطة ٢١٠٢، وفي القاهرة، دار الكتب المصرية، قَوَلَه ١/ ٤٢٤.

٧ ـ «تحقيق الخلاف، في أصحاب الأعراف».

فرغ منه سنة ١٠٢٣ هـ.

منه نسخة في باتنة ٢/ ٤٢٨، وفي جامعة برنستون غاريت ١٥٣١.

٨ ـ «تحقيق الرجحان، بصوم يوم الشك من رمضان».

منه نسخة في دار الكتب المصرية، الخزانة التيمورية، المجلد التاسع من مجلة المجمع العربي بدمشق، صفحة ٦٣٨.

٩ ـ «تحقيق الظنون، بأخبار الطاعون».

فرغ منه سنة ١٠٢٨ هـ.

منه نسخة في برلين ٦٣١٣، وفي باريس ٢٠٢٦.

١٠ ـ «تشويق الأنام، في الحج إلى بيت الله الحرام».

منه نسخة في لايبزغ (ألمانية الشرقية) ٢٧٧.

١١ ـ «تلخيص أوصاف المصطفى، وذكر من بعده من الخلفا».

منه نسخة في مكتبة شهيد علي باش (بإستنبول) ١٨٦١.

١٢ ـ «تنوير بصائر المقلّدين، في مناقب الأئمة المجتهدين».

منه نسخة في بريل (هوتسما، الموجودة في جامعة برنستون) ٢/٩٠٩، وفي المكتبة الخالدية (القدس) ٧٦، وفي القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية الموجودة في الدار ٥/١٤٦، وفي الظاهرية (دمشق) ٨٤٨٨.

١٣ ـ «توضيح البرهان، في الفرق بين الإسلام والإيمان».
منه نسخة في مكتبة سليم آغا (تركية، أسكدار) ٦٥٧.

١٤ ـ «توقيف (توفيق) الفريقين، علىٰ خلود أهل الدارين».
منه نسخة في باتنة ٢/ ٤٢٨.

١٥ ـ «جامع الدعاء، وورد الأولياء، ومناجاة الأصفياء».
منه نسخة في القاهرة، دار الكتب المصرية،

فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية ٢/ ١٩٠.

١٦ ـ «الحكم الملكية، والكلم الأزهرية».
منه نسخة في باريس ٢٠٢٦.

١٧ ـ «خداع الأرواح، بالمحادثة والمزاح».
منه نسخة في جامعة برنستون غاريت ٢٠٤١.

١٨ ـ «دفع الشبهة والغرر، عمن يحتج على فعل المعاصي بالقدر».
منه نسخة في القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية ٦/ ١٤٠، وفي فهرست الكتب العربية الموجودة في الدار ١/ ٢١.

١٩ ـ «دليل الطالبين، لكلام (في كلام) النحويين».
منه نسخة في الفاتيكان (فيدا) ٨٣٢.

٢٠ ـ «رسالة فيما وقع في كلام الصوفيين من ألفاظ موهمة للتكفير . . . إلخ» .

منه نسخة في القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية ٧/ ٥٤٦ .

٢١ ـ «الروض النضر، في الكلام على الخضر» .

منه نسخة في باتنة ٢/ ٤٢٨ .

٢٢ ـ «سلوان المصاب، بفرقة الأحباب» .

منه نسخة في جامعة برنستون غاريت ٢٠٤١، وفي بريل (هوتسما) ١/ ٧٧١ و ١١٥٦ .

٢٣ ـ «فرائد (فوائد) (مرآة) الفكر، في الإمام المهدي المنتظر» .

منه نسخة في باريس ٢٠٢٦، وفي جامعة برنستون غاريت ١٥٢٧، وفي القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية

المحفوظة بالكتبخانة الخديوية ٦/ ١٦١، وفي فهرست الكتب العربية الموجودة في الدار ١/ ٣٣٧، وفي بريل (هوتسما) ١/ ٥٢٨ و ٢/ ١٠٠٦، وفي مكتبة أسعد أفندي (بإستنبول) ١٤٤٦.

٢٤ ـ «قلائد العقيان، في فضائل سلاطين (ملوك) آل عثمان».

فرغ منه سنة ١٠٣١ هـ.

منه نسخة في فينة ٩٧٩ و ٩٨٠، وفي باريس ١٦٢٤ و ٤٩٢٦، وفي المكتبة العمومية بتركية = مكتبة بايزيد الحكومية الوطنية ٥٧٣، وفي الموصل ١١٠ و ١٣٧، وفي رامبور ١/ ٦٤٣، وفي بانكيبور (بالهند) ١٥/ ١٠٦٧، وفي الخزانة العامة بالرباط ٢٣٨٠ ك.

٢٥ ـ «القول المعروف، في فضائل المعروف».

جمع فيه ٤٠ حديثاً في هذا الموضوع.

منه نسخة في دار الكتب المصرية، الخزانة التيمورية ٢٧٢ مجاميع.

٢٦ ـ «الكلمات البيّنات (السنيّات)، في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾».

فرغ منه سنة ١٠٢٨ هـ.

منه نسخة في برلين ٤٩٦، وفي القاهرة، دار الكتب المصرية، فهرست الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانة الخديوية ٧/ ٢٨، وفي فهرست الكتب العربية الموجودة بالدار ١/ ٥٩.

٢٧ ـ «اللفظ الموطّا، في بيان الصلاة الوسطى».

منه نسخة في الظاهرية ٧٣ و ٣٨، وفي القاهرة، دار الكتب المصرية، الخزانة التيمورية ٣٩٥ مجاميع.

٢٨ ـ «المختصر، في علم الصرف».

منه نسخة في القاتيكان (فيدا) ٢٦٨، وفي مكتبة طوب كابي سراي (بإستنبول) ١٨٠.

٢٩ ـ «المسرّة والبشارة، في فضل السلطنة والوزارة».

فرغ منه سنة ١٠٣٢ هـ.

منه نسخة في مكتبة الكونغرس ١٠٥.

٣٠ ـ «منية المحبين، وبغية العاشقين».

منه نسخة في الإسكندرية ١٧٠ آداب.

٣١ ـ «نزهة الناظرين، في تاريخ من ولي مصر من الخلفاء والسلاطين».

فرغ منه سنة ١٠٠٧ هـ.

منه نسخة في برلين ٩٨٢٩، وفي ميونيخ ٣٩٥ و ٨٩٩، وفي غوطة (في مدينة هالة بألمانية الشرقية) ١٦٤٢، وفي فينة ٩٢٠، وفي المتحف البريطاني ١٢٣٣، وفي مكتبة البودليان (بمدينة أكسفورد بإنكلترة) ٢/ ١١٥،

وفي باريس ١٨٢٦ و ٥٩٢٠، وفي مكتبة بطرس برغ (لينينغراد) (روزن) ٥٥، وفي جامعة برنستون غاريت ٦٠٧، وفي كمبريدج ١١٧٥، وفي الخزانة العامة بالرباط ٢٣٤٧.

٣٢ ـ «نزهة النفوس الأخيار، ومطلع مشارق الأنوار».

منه نسخة في الأزهرية ٢٤١٩.

٣٣ ـ «نصيحة».

منه نسخة في برلين ٥٤١٥.

هذا آخر ما وقفنا عليه من ذِكْر لمصنفاته المخطوطة وأماكن وجودها، وما طبع منها.

* * *

وقد ذكرت المصادر ـ وخاصة «إيضاح المكنون» ـ كتباً كثيرة أخرى للمصنِّف نسردُها سرداً مع ذكر أرقام الصفحات للكتاب الذي نقلنا منه،

فما كان غفلاً عن اسم الكتاب فهو «إيضاح المكنون»، وما كان غير ذلك أثبتناه:

١ - «الأسئلة عن مسائل مشكلة». ذكره هو في كتابه «أقاويل الثقات» ص (٧٣).

٢ - «الآيات المحكمات والمتشابهات». ١/ ٧.

٣ - «الأدلّة الوفيّة، بتصويب قول الفقهاء والصوفيّة». ١/ ٥٢.

٤ - «إرشاد ذوي الأفهام، لنزول عيسى عليه السلام». ١/ ٦٠.

٥ - «إرشاد مَن كان قصد لا إله إلا الله وحده»[1]. ١/ ٦٤.

٦ - «أرواح الأشباح، في الكلام على الأرواح». ١/ ٦٤.

---

(١) في «النعت الأكمل»: ١٩١: «إرشاد من كان قصده، إعراب لا إله إلا الله وحده».

٧ ـ «أزهار الفلاة، في آية قصر الصلاة». ١/ ٦٦.

٨ ـ «إيقاف العارفين، على حكم أوقاف السلاطين». ١/ ١٥٩.

٩ ـ «البرهان، في تفسير القرآن». لم يتمه. ١/ ١٧٩.

١٠ ـ «بشرى ذوي الإحسان، لمن[١] يقضي حوائج الإخوان». ١/ ١٨٤.

١١ ـ «بشرى من استبصر، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر». ١/ ١٨٤.

١٢ ـ «تحقيق المقالة: هل الأفضل في حق النبي الولاية، أو النبوة والرسالة»[٢]. ١/ ٢٦٧.

١٣ ـ «تسكين الأشواق، بأخبار العشّاق». ١/ ٢٨٦.

---

(١) في «النعت»: «فيمن».
(٢) في «النعت» و«الخلاصة»: «أو الرسالة».

١٤ ـ «تسليك المريدين». «النعت الأكمل»: ١٩٢، و «الخلاصة»: ٣٥٩.

١٥ ـ «تنبيه الماهر، على غير ما هو المتبادر؛ من الأحاديث الواردة في الصفات». ١/ ٣٢٧.

١٦ ـ «تهذيب الكلام، في حكم أرض مصر والشام». ١/ ٣٤٢.

١٧ ـ «الحجج البيّنة، في إبطال اليمين مع البيّنة». ١/ ٣٩٤.

١٨ ـ «دليل الحكّام، في الوصول إلى دار السلام». ١/ ٤٧٨.

١٩ ـ «ديوان الكرمي» (ديوان شعر). ١/ ٥٢٦.

٢٠ ـ «رفع التلبيس، عمن توقّف فيما كفر به إبليس». ١/ ٥٧٨.

٢١ ـ «روض العارفين». ١/ ٥٨٩.

٢٢ ـ «رياض الأطهار[1]، في حكم السماع والأوتار، والغناء والأشعار». ١/ ٥٩٩.

٢٣ ـ «السّراج المنير، في استعمال الذهب والحرير». «هدية العارفين»: ٢/ ٤٢٧.

٢٤ ـ «سلوك الطريقة، في الجمع بين كلام أهل الشريعة والحقيقة». ٢/ ٢٥.

٢٥ ـ «شفاء الصدور، في زيارة المشاهد والقبور». ٢/ ٥٠.

٢٦ ـ «فتح المنّان، بتفسير آية الامتنان». ٢/ ١٧٤.

٢٧ ـ «قرّة عين الودود، بمعرفة المقصور والممدود». ٢/ ٢٢٥.

٢٨ ـ «قلائد العقيان، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾». ٢/ ٢٣٨.

---

(١) في «خلاصة الأثر» و«إيضاح المكنون»: «مرآة الفكر...».

٢٩ ـ «القول البديع، في علم البديع». ٢/ ٢٤٧.

٣٠ ـ «الكلمات البيّنات، في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾». ٢/ ٣٧٨.

٣١ ـ «لطائف المعارف». ٢/ ٤٠٥.

٣٢ ـ «ما يفعله الأطباء والدّاعون، لدفع شر الطاعون». ٢/ ٤٤٣.

٣٣ ـ «مسبوك الذهب، في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب»[١]. ٢/ ٤٧٧.

٣٤ ـ «المسائل اللطيفة، في فسخ الحج والعمرة[٢] الشريفة». ٢/ ٤٢٧.

٣٥ ـ «مقدّمة الخائض، في علم الفرائض». ٢/ ٥٤٣.

---

(١) جعلهما في «النعت» كتابين: «مسبوك الذهب في فضل العرب» و«شرف العلم على شرف النسب».

(٢) في «النعت» و«الخلاصة»: «إلى العمرة».

٣٦ ـ «نزهة المتفكر». ٢/ ٦٤١.

٣٧ ـ «نزهة الناظرين، في فضائل الغزاة والمجاهدين». ٢/ ٦٤٢.

٣٨ ـ «النادرة الغريبة، والواقعة العجيبة». مضمونها: شكوى من عصريّه إبراهيم بن محمد المَيْمُونِي، والحطُّ عليه. ٢/ ٦١٤.

شعره:

كان المصنِّف ـ رحمه الله ـ أديباً وشاعراً، وله شعر مشهور، وديوان مسطور.

ومن شعره:

يا سَاحِرَ الطَّرْفِ يا مَنْ مُهْجَتي سَحَرا
كم ذا تنامُ وكم أسهرتَني سَحَرا
لو كنتَ تعلمُ ما ألقاهُ منكَ لما
أبقيتَ يا مُنيتي قَلْباً إليكَ سَرَى

هٰـذا المحـبُّ لَقَـدْ شَـاعَـتْ صبـابتُـهُ

بالرُّوح والنفس يوماً في الـوِصَال شـرَى

عَسَـاك بـالحنفـي تسعـى علـى عَجَـلٍ

بـالـوَصْـلِ للحنبلـي يـا مَـنْ بَـدَا قَمَـرَا

يـا نـاظِـري بـالـدَّمـع جَـادَ وَمـا

أبقيـت يـا مُقْلَتِـي فـي مُقلتـي نَظَـرا

يـا مَـالِكـي قِصَّتِـي جَـاءَتْ ملطخـة

بـالـدَّمـعِ يـا شـافِعِـي كـدَّرتهـا نظـرا

يَـا مَـنْ جَفـا ووفـا لِلغَيْـر مَـوْعِـدُهُ

يـا مَـنْ رَمَـانَـا ويـا مَـنْ عقلنـا قَمِـرَا

الله منصِفُنَـا بـالـوَصْـلِ مِنْـكَ علـى

غَيْـظِ الـرَّقِيـب بمـن قَـدْ حَـجَّ واعْتَمَـرا

يـا غَـامِـراً لِكَئِيـب بـالصُّـدودِ كمـا

أن السِّقـامَ لمـن يَهْـواكَ قَـدْ غمَـرَا

قِـلَّ الصـدودَ فَكَـمْ أسْقَيْـتَ أنْفُسَنَـا

كـأسَ الحِمـام بـلا ذَنْـبٍ بَـدَا وَجَـرَى

وكم جَرحْتَ فُؤادِي كَم ضَنَى جَسَدِي

أَلَيس دَمْعِي حبيبي مُذْ هَجَرْتَ جَرَى

فالشَّوْقُ أَقْلَقَنِي والوَجْدُ أَحْرَقَنِي

والجسْمُ ذَابَ لِمَا قَدْ حَلَّ بي وَطَرَا

والهَجْرُ أَضعَفَنِي والبُعْدُ أَتْلَفَنِي

والصَّبرُ قَلَّ وما أَدْرَكْتُ لِي وَطَرَا

أشكُوكَ للمُصْطَفَى زَيْنِ الوُجُودِ وَمَنْ

أَرْجُوهُ يُنْقِذُنِي مِنْ هَجْرِ مَنْ هجرا

وقوله:

بِرُوحيَ مَنْ لي في لِقَاهُ ولائمُ

وكَمْ في هَوَاهُ لي عَذُولٌ ولائِمُ

على وَجْنَتَيْهِ وَرْدَتَانِ وخالُه

كَمِسْكٍ لَطِيفِ الوَصْفِ والثَّغْرُ بَاسِمُ

ذوائبُهُ لَيْلٌ وَطَلْعَةُ وَجْهِهِ

نَهَارٌ تَبَدَّى والثَّنَايَا بَوَاسِمُ

بَـدِيـعُ التَّثَنِّـي مُـرسِـلٌ فَـوْقَ خَـدِّهِ
عِـذاراً، هَـوَى العُـذْريْ لَـدَيْـهِ مُـلازِمُ
وَمِـنْ عَجَـبٍ أنـي حَفِظْـتُ وِدَادَهُ
وذَلِـكَ عِنْـدِي فـي المحبَّـةِ لاَزِمُ
وَبَيْنِـي وَبَيْـنَ الـوَصْـلِ مِنْـهُ تَبَـايُـنٌ
وَبَيْنِـي وَبَيْـنَ الفَصْـلِ مِنْـهُ تَـلازُمُ

وقوله ـ رحمه الله تعالى ـ:

لَيْـتَ فـي الـدَّهْـرِ لَـوْ حَظِيـتُ بِيَـوْمِ
فِيـهِ أَخْلُـو مِـنَ الهَـوَى والغَـرَامِ
خَـالِـيَ الْقَلْـب مِـنْ تَبَـارِيـحِ وَجْـدٍ
وَصُـدُودٍ وحُـرْقَـةٍ وهُيَـامِ
كَـيْ يُـرَاحَ الفُـؤَادُ مِـنْ طُـولِ شَـوْقٍ
قَـدْ سَقَـاهُ الهَـوَى بِكَـأسِ الحِمَـامِ

وقـولـه:

يُعـاتِـبُ مَـنْ فِـي النَّـاسِ يُـدْعَـى بِعَبْـدِهِ
وَيقْتُـلُ مَـنْ بـالقَتْـلِ يَـرْضَـى بِعَمْـدِهِ

وَيُشْهِرُ لي سَيْفَاً ويَمْرَحُ ضَاحِكاً
فيَا لَيْتَ سَيْفَ اللَّحظِ تَمَّ بِغِمْدِهِ
فللّهِ مِنْ ظَبْيٍ شرُودٍ ونَافِرٍ
يُجَازِي جَمِيلاً قَدْ صَنَعْتُ بضِدِّهِ
يُبالغُ في ذَمِّي وأمدحُ فعلَهُ
فشكراً لمن ما جار يوماً بعبدِهِ

وقوله:

إنَّما النَاسُ بَلاءٌ وَمِحَنْ
وهُمُومٌ وغُمُوم وَفِتَنْ
وَعَنَاءٌ وضَنَاءٌ قُرْبُهُمْ
وهَلاكٌ لَيْسَ فِيهِمْ مُؤْتَمَنْ
حسَّنوا ظَاهِرَهُم كَيْ يَخْدَعُوا
لَيْسَ في بَاطِنِهِم شَيءٌ حَسَنْ
لَيْسَ مَنْ خَالَطَهُمْ في رَاحَةٍ
ضَاعَ مِنْهُ الدِّينُ والمالَ وَزَنْ

فَاحْذَرَن عِشْرَتَهُم واتْرُكْها
واجَتَنبْهُم سِيَّما هٰذَا الزَّمنْ

وقوله ـ وهو مما جاء في صفحة مخطوطة «أقاويل الثقات» ـ:

يا مَنْ غَدَا ناظراً فيما جَمَعْتُ ومَنْ
أضْحى يُرَدِّدُ فيما قلتُه النَّظَرا
ناشدتُك الله إن عاينتَ لي خطأً
فاسْتُرْ عَلَيَّ فَخَيرُ النَّاسِ مَنْ سَتَرَا

وفاته:

كانت وفاة صاحب الترجمة بمصر، في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وألف (١٠٣٣) للهجرة النبويّة، على صاحبها أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم.

مصادر ترجمته:

«خلاصة الأثر»: ٤/٣٥٨، و «كشف الظنون»:

١٩٤٨، و «مختصر طبقات الحنابلة»: ٩٩، و «النعت الأكمل»: ١٨٩، و «هدية العارفين»: ٢/ ٤٢٦، و «عنوان المجد»: ١/ ٣١، و «تاريخ آداب اللغة العربية»: ٣/ ٢٩٣، و «أعيان دمشق»: ٢٤٤، و «الأعلام»: ٧/ ٢٠٣، و «معجم المؤلفين»: ١٢/ ٢١٨، و «إيضاح المكنون»: ١/ ٧، ١٨، ٣٤، . . . وغيرها.

BROCKELMANN: G. A. L./G 11 484, S 11 496.

هذا باختصار استعراض سريع لترجمة الشيخ مرعي الكرمي الحنبلي المقدسي.

هذا الكتاب

جمع المؤلف في هذا الكتاب ما تفرق من كلام علماء علم الكلام والتوحيد في زيادة العمر ونقصانه وبيان القدر والمقدّر. فحاول أن يجيب عن كل تساؤل يتعلق بهذه المسألة.

ولعل ما ذكرته في بداية المقدمة عن سبب رجوعي لهذا الكتاب غير مقصور عليه، بل إن البيان الشافي لهذه المسألة وتوضيحها من دواعي الشجاعة والإقدام والتوكل، والرسوخ والثبات على الحق، بل هذا البيان هو الأساس في الثبات على الحق والمضي دونه.

هذه الطبعة:

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى بتحقيق الأستاذ مشهور حسن سلمان، وهذه الطبعة هي إعادة لما سبق بالاعتماد على المخطوطة نفسها، وهي النسخة المحفوظة في جامعة برنستون، مجموعة غاريت، رقم ١٥٣١؛ مع محاولة التحسين والتصحيح، مع اعتراف بفضل الأستاذ مشهور حسن سلمان حيث كان له فضل السبق.

* * *

اللهم ألهمنا الصواب، وأرحم والدينا وجميع من له حق علينا. وآخر دعوانا أن الحمدُ لله رب العالمين.

دمشق في ١٢/٨/١٩٩٣ م

بسّام عبد الوهّاب الجابي

إرشاد ذوي العرفان

لما للعمر من الزيادة والنقصان

تأليف

زين الدين مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي

بعناية

بسام عبد الوهاب الجابي

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَمْدُ لِمَنْ خَلَقَ اللَّوْحَ وَالقَلَمَ، وأَوْجَدَ العَالَمَ بأَسْرِهِ مِنَ الْعَدَمِ؛ وَجَعَلَ كُلَّ شَيْءٍ عِنْدَه في كِتَابٍ مَسْطُورٍ، وَكَتَبَ فِي أُمِّ ٱلْكِتَابِ ما هو كائِنٌ مِنَ المَقْدُورِ؛ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ والأَرْضَ بخمسين أَلف سنة فكان ما كان؛ فَيَا غَنِيُّ مَنْ نَظَرَ في بواطن الأُمور، ويا عَنِيٌّ من عَنىٰ مُجرَّدَ الظهور، في مقامٍ يَقْطع الظُّهور؛ فَالأنفاس مَعْدُودة، وَالآجالُ مَحْدُودة، وَالأَعْمَالُ الْغَيْر المُخْلصة مردودة؛ فَلَا تَغَيّرَ ولا تَبَدُّل ولا زيادة ولا نقص لما فِي عِلْمِ ٱللَّهِ مَسْتور، يَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَه أُمّ الكِتاب مَسْطُور؛ فمن كان عَبْداً مُسْلِماً، كَانَ لِمَوْلَاهُ

مُسَلِّماً، وَلِأَمْرِهِ مُسْتَسْلِماً، وَفَوَّضَ الأَمْرَ إلىٰ عَالِمِ الأُمور.

أَحْمَدُ مَنْ حَدَّدَ ٱلآجالَ وَالأَعْمَارَ، وَحَدَّدَ السُّرورَ تارةً والشُّرُورَ أُخرَىٰ علىٰ أَهْلِ هذه الدّار، العَالِمَ بِمَا تُكِنُّهُ الضَّمائر وَمَا يَخْتَلِجُ في الصُّدُور.

وَأَشْهَدُ أنْ لا إلٰه إلا الله، وحدَهُ لا شريك له شَهادةَ عَبْدٍ مُعْتَرِفٍ بذنبه، مُغْتَرِفٍ من فَيْضِ رَبِّه؛ مُلْقٍ نفسه في تيّار بحر القضاء والمقدور، لا يَملك لِنفَسْهِ ضرّاً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

وأشْهَدُ أَنَّ سيِّدَنا محمداً عَبْدُه ورَسولهُ وصاحِبُ الحَوْضِ المورود، واللّواء المعْقُود، وَالمَقامِ المحمودِ، والعطاء المشهور.

وصَلّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وأصْحَابِهِ أُولي المَجْدِ والفخار والبهاء والنور؛ وسلّم تسليماً.

أَمَّا بَعْدُ؛

فَهَذِهِ فرائِدُ يتيمة، وفوائد ثمينة؛ وعقودُ جواهر مُضيئة، وبدورٌ سوافر مستضيئة؛ مُتكلِّماً فيها على زيادَةِ العُمُر ونقصانِه، وبيانِ إثبات القَدَرِ وتبيانِه؛ وأنَّ المَقْدورَ مسطور، والمستورَ مَنْشُور، يوم البعث والنشور؛ جانِحاً في ذلك لاخْتِصارِ كلامِ أُولي الأَلْباب، جامِعاً ما تَفَرَّقَ مِنْ كلامِهِم في هذا الكِتاب، مُجانباً فيه للإِيجازِ المُخِلِّ والإِطْناب؛ مُراعياً أحْسَنَ التَّرتيب والمسالِك، وَإِنْ كُنْتُ لَسْتُ بأهْلٍ لِما هُنالِك، لكنَّ الله سبحانه هُوَ وَلِيُّ ذلك.



مُقَدّمَة
في
إثباتِ حقيقَةِ القَدَر



ٱعلَمْ ـ وَفَّقَكَ ٱللَّهُ تعالى ـ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْلِ الحقِّ هو الحقُّ، ومَذْهَبُهُم: إنَّ اللّهَ تَعَالىٰ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الخلْقِ وما يكون من الأشياءِ قَبْلَ أَنْ تكُونَ في الأَزلِ، وَعَلِمَ سُبْحَانه أَنَّهَا سَتَقَعُ في أوقاتٍ مَعْلومَةٍ عنده سُبْحَانه، علىٰ صِفاتٍ مخْصوصَةٍ، فهي تَقَعُ على حَسْبِ ما قَدَّرَها.

وَخَالَفَتِ القَدَرِ[يَّةُ] في ذَلِكَ وَمَنْ ذَهَبَ إلى مَذْهبهم، فقالوا: إنَّهُ سُبْحَانَهُ لَمْ يُقَدِّرِ الأشياء، وَلَمْ

يَتَقَدَّمْ عِلْمُهُ بها، وَإِنَّهَا مُسْتَأْنَفَةُ العِلْم، أي: إنَّما يَعْلَمُها سُبْحانه بعد وُقوعِها.

وَكَذَبُوا علىٰ اللّهِ في قولِهِم ومذهبهم؛ وهو مذهب باطل بالكتاب والسنّة وإجماع الأُمَّة.

أمّا الكتابُ فقولهُ تَعالَىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية: ٢٢]. وَقَوْلُهُ تَعالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [٩ سورة التوبة/ الآية: ٥١] إلى غير ذلك من الآيات.

وَأَمّا السُّنَّة، فَأَحَادِيثُ جَمَّةٌ، فِي البُخَارِيِّ وَمُسْلم وغَيْرِهما.

ففي مُسْلِمٍ [رقم: ٢٦٥٣] عَنْ عَبْدِالله بْنِ عَمْرو بن العاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ ٱللَّهُ مَقَادِيرَ ٱلْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ».

وفي مُسْلِمٍ أيْضاً [رقم: ٢٦٥٢] حَيْثُ تَحاجَّ آدَمُ وَمُوسَىٰ، وَفيه: «قَالَ آدَمُ لِمُوسَىٰ: أَفتَلُومُنِي عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ قَبْلَ أَنْ يَخلِقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفِ سَنَةٍ».

وفي مُسْلِمٍ أيْضاً [رقم: ٢٦٤٧] مِنْ حَديثِ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَفِيهِ: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلَّا وَكَتَبَ ٱللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ وَٱلنَّارِ، إِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيْدَةً». قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ ٱللَّهِ! أَفَلَا نَمْكُثُ عَلَىٰ كِتَابِنَا وَنَدَعُ ٱلْعَمَلَ؟ فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَىٰ عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، ٱعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ [لِمَا خُلِقَ لَهُ]، أَمَّا أَهْلُ ٱلسَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ ٱلسَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ ٱلشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ».

وَقَالَ ٱلْبُخَارِيُّ في بَعْضِ طُرُقِهِ [رقم: ٧٥٥٢] في هذا الحَدِيثِ: «ٱعْمَلُوا، كُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَوْ لِمَا يُسِّرَ لَهُ».

وفي تفسير الكَوَاشِي: لِلسَّعَادَةِ عَلَامَاتٌ: لِينُ القَلْبِ، وَكَثْرَةُ ٱلْبُكَاءِ، والزُّهْدُ فِي الدُّنيا، وَقِصَرُ الأَمَلِ، وَكَثْرَةُ الحَياءِ. وَللشقَاوَةِ عَلامَاتٌ: قَسْوَةُ القَلْبِ، وجُمودُ العَيْنِ، والرَّغْبَةُ في الدُّنْيا، وطُولُ الأَمل، وَقِلَّةُ الحَياءِ.

وفي تفسير مَكِّي: عَنِ ٱبْنِ عَبَاسٍ رَضِي الله عنهما، قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ النُّونَ - وهو الدَّواةُ - وَخَلَقَ القَلَمَ، فَقَالَ: ٱكْتُبْ! قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: «ٱكْتُبْ مَا هُوَ كائِنٌ إلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ مِنْ عَمَلٍ معمولٍ، بَرٍّ أو فُجور، ورزْقٍ مَقْسُومٍ، حَلالٍ أو حَرام؛ ثُمَّ أَلْزَمَ كُلَّ شَيْءٍ من ذلك شَأْنَهُ، مِنْ دُخولِهِ في الدُّنْيا، وَمقامِهِ

فيها كم هو، وخروجه منها كَيْفَ» [«مستدرك الحاكم» ٢/ ٤٩٨].

وفي تفسير الثَّعْلَبِيِّ: قَالَ ٱبْنُ عُمَر: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلْقَلَمُ مِنْ نُورٍ، طُولُه خَمْسُ مئة عَام، فَقَالَ لِلْقَلَمِ: ٱكْتُبْ، ٱجْرِ. فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلٍ، بَرِّها وَفَاجِرِها، وَرَطْبِها وَيَابِسها» [«الدرّ المنثور» ٦/ ٣٦].

وأخرج البَزَّارُ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ ٱلصَّامِتِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلْقَلَم، فَقَالَ: ٱجْرِ، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ». قَالَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْمَدِيني: إسناده حسن.

وَأَخْرَجَ ٱلإِمَامُ أَحْمَدُ [٥/ ٣١٧] وَالتِّرمِذِيُّ [رقم: ٢١٥٥] وصَحَّحَهُ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلْقَلَمُ، قَالَ لَهُ: ٱكْتُبْ. قَالَ: يَا رَبِّ! وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: ٱكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ».

وَفِي التِّرْمِذِيِّ، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: ٱكْتُبْ، فَجَرَىٰ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ ٱلأَبَدِ». قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَن بن أبي زُرَارَة: وَهَذَا ٱلْحَدِيثُ مِنَ الصِّحَاحِ.

وَذَكَرَ المفسِّرون، في قولِهِ تَعالى: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [٨٥ سورة البروج/ الآيتان: ٢١ و ٢٢]. عَنِ ٱبْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنهُمَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ ٱلآيَةِ: إِنَّهُ لَوْحٌ من دُرَّةٍ بَيْضاء، طولُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْض، وعَرْضُهُ ما بَيْنَ المَشْرِقِ والمَغْرِب، وحَافَّتَاهُ الدُّرُّ واليَاقوت، ودفَّتَاهُ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْراء، محفُوظٌ مِنَ الشَّياطِين وَمِنْ أَنْ

يُبَدَّلَ أَوْ يُغَيَّرَ، لِلَّهِ فِيهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، ثلاث مئة وستون لحظة، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ ويُذِلَّ، ويَفْعَلُ ما يشاء. [«مستدرك الحاكم» ٢/ ٥١٩].

وَحَكَىٰ الثَّعْلَبِيُّ في تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية: ٣٩]. قَالَ: إنَّ لِلَّهِ لَوْحاً مَحْفوظاً مَسِيرَةَ مئة عامٍ، مِنْ دُرَّةٍ بيضاء، له دفَّتان من يَاقوتَةٍ، لَهُ فِيهِ كلَّ يَوْم ثلاث مئة وستون لحظة. ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية: ٣٩].

يعني: اللَّوْحُ المحفوظ الَّذِي لا يُبَدَّل ولا يُغَيَّر.

وَحَكَىٰ أيْضاً في قولِهِ تَعَالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [٥٥ سورة الرحمن/ الآية: ٢٩]: إنَّ مِمَّا خَلَقَ ٱللَّهُ لَوْحاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضاء، دفَّتاهُ مِنْ ياقوتةٍ حَمراء، قَلَمُه نُورٌ، وكتابُهُ نُورٌ، يَنْظُرُ اللَّهُ فِيهِ كُلَّ

يَوْمٍ ثلاث مئة وستين نَظْرة، يَخْلُقُ ويَرْزُقُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [٥٥ سورة الرحمن/ الآية: ٢٩].

وَقَالَ وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: خَلَقَ لَوْحاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، قَلَمُهُ مِنْ زُمُرُّدَةٍ خضراء، وَكِتَابُهُ نُورٌ، يَنْظُرُ ٱللَّهُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ ثلاث مئة وَسِتِّين نَظْرَة، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ، وَيَرْفَعُ أَقْوَاماً، وَيُخْفِضُ آخَرِين، وَيَحْكُمُ مَا يَشاءُ، وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

وَذَكَرَ الإِمَامُ فَخر الدِّين [«تفسير الرازي» ١٩/٦٦]، في تَفْسِيرِ قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية: ٣٩] أَنَّهُ اللَّوْح المحْفُوظ، قال: وَجَمِيعُ حَوادِثِ ٱلْعَالَم العُلْوِيّ والعَالم السُّفْلي مُثْبَتَةٌ فِيهِ. وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ ٱللَّهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، ثُمَّ خَلَقَ ٱللَّوْحَ

ٱلْمَحْفُوظَ، وَأَثْبَتَ فِيهِ جَمِيعَ أَحْوَالِ ٱلْخَلْقِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ» [ابن حبان، رقم: ٦١٤٢].

وَذَكَرَ الإمامُ الفَخْرُ أَيْضاً [١١/١٣] في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [٦ سورة الأنعام/ الآية: ٥٩]: إِنَّ مِنْ فَوَائِدِ هَٰذَا ٱلْكتابِ أَنَّهُ تَعَالى إِنَّمَا كَتَبَ هذه الأحوالَ فِي اللَّوْحِ المحْفُوظِ، لِتَقِفَ الملائِكَةُ على نَفَاذِ عِلْمِ ٱللَّهِ تَعَالَىٰ فِي المَعْلُومات، وَأَنَّهُ لا يَغِيبُ عَنْهُ مِمّا فِي السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ شيءٌ، فَيَكُونُ [في] ذَلِكَ عِبْرَةٌ تَامَّةٌ [كامِلَةٌ] لِلمَلائِكَةِ المُوَكَّلِين باللَّوْحِ، لأَنَّهُمْ يُقابِلُونَ بِهِ مَا يَحْدُثُ فِي هذا العَالَمِ، فَيَجِدُونَهُ موافِقاً له. انتهى.

ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بُطلانُ مَذْهَبِ القَدَرِيَّة وَمَنْ وافقَهم.

وفي الحديث: «القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِه الأُمَّةِ، إِنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُم، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ» [أبو داود، رقم: ٤٦٩١].

إِذَا تَقَرَّرَ هذا، فَلْنَشْرَعْ في المقصودِ، بِعَوْنِ المَلِك المعْبُود، فنقولُ:

في زِيَادَةِ العُمُرِ ونَقْصِهِ خلافٌ كبيرٌ بَيْنَ العُلَماء، وَكلامٌ كَثِيرٌ بَيْنَ الأَئِمَّةِ الفُضَلاء، لا سِيَّما أئِمَّة السَّلف وَمَنْ بَعْدَهُم مِنْ الخَلْق. فَمِنْهُم مَنْ قَالَ: إنَّ العُمُرَ يَزيدُ ويَنْقُصُ، وَبِهِ قَالَ الإمامُ عُمَرُ بْنُ الخطاب وعَبْدُاللَّهِ بْنُ مَسْعود وأبو وائل وَكَعْب وَجَمْعٌ كَثِيرٌ وَجَمٌّ غَفِير. وَمِنْهُمْ، مَنْ قَال: إِنَّ العُمُرَ لا يزيدُ ولا يَنْقُص، وبِهِ قَالَ جُمْهُورُ العُلماء. وَحَكَىٰ ٱبْنُ عَطِيَّةَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الأَعْراف: أَنَّهُ مَذْهَبُ أَهْلِ ٱلسُّنَّة.

وَلِكُلٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ دَلِيلٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسَتَمرُّ عليكَ، وتقرأ بين يَدَيْكِ، بأوضح عبارةٍ، وألطف إشارة.

***

فَٱحْتَجَّ القائِلون بزِيادَةِ العُمُر ونَقْصِه بالكِتاب والسُّنّة.

وَحُجَّتُهُم مِنَ الكِتَابِ آياتٌ:

منها: قَوله تَعَالىٰ: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ. . .﴾ الآية [٣٩ من ١٣ سورة الرعد].

وَجْهُ الدَّلِيلِ مِنْها: أَنَّهَا عَامَّةٌ في كُلِّ شَيْء، يَقْتَضِيه ظاهِرُ اللَّفْظِ.

قال الإمام الفَخر [الرازي ١٩/ ٦٤]: قَالُوا: إنَّ اللَّهَ يَمْحُو مِنَ الرِّزقِ، وَيزيدُ فِيه. وَكَذَلِكَ القولُ في الأَجَلِ والسَّعادَةِ والشَّقاوَةِ والإيمان وَالكُفْر.

قَالَ: وَالقَائِلون بِهَذا القَوْلِ كَانُوا يَدْعُونَ وَيَتَضَرَّعُون إلى أَنْ يَجْعَلَهم اللَّهُ سُعداء لا أشقياء. وَهَذَا التَّأْوِيل رَواهُ جَابِرٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [٣٥ سورة فاطر/ الآية: ١١]. أي: لا يَطولُ عُمُرُ إنسانٍ ولا يَنْقُصُ إلاَّ وَهُوَ فِي كتابٍ، أي: في اللَّوْحِ المحْفُوظِ.

قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ [«الكشاف» ٣/ ٣٠٣]: وَصُورَتُهُ أَنْ يُكْتَبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ: إنْ حَجَّ فُلانٌ ولَمْ يَغْزُ فعمُرُه أرْبَعون سنة، وَإنْ حَجَّ وغزا فَعُمرُهُ ستون سنة، فَإذا جَمَع بيْنَهُمَا، فقد بَلَغَ السِّتِّين وقد عُمِّرَ، وَإذَا أفْرَدَ أحَدهما عن الآخَر فلا يجاوِزُ الأَرْبَعِين، فقد نَقُص من عُمُره الذي هو الغايَة، وهو الستون.

قَالَ: وَإلَيْهِ أشَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، بأنْ قَالَ: «الصَّدَقَةُ وَالصِّلَةُ يُعْمِرانِ الدِّيار، وَيَزِيدَانِ في

الأعْمار» [«مسند أحمد» ٦/ ١٥٩]. وَعَنْ كَعْبٍ أنَّهُ قَالَ حِينَ طُعِنَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ عُمَرَ دَعَا ٱللَّهُ لَأَخَّرَ في أَجْلِهِ. فَقِيلَ لِكَعْبٍ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ ٱللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [٧ سورة الأعراف/ الآية: ٣٤]. قَالَ: فَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [٣٥ سورة فاطر/ الآية: ١١].

قَال الزَّمَخْشَرِيُّ [«الكشاف» ٣/ ٣٠٣]: وَقَدْ ٱسْتَفَاضَ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ النَّاسِ: أَطَالَ ٱللَّهُ عُمُرَكَ، وَفَسَحَ في مُدَّتِكَ، وَمَا أَشْبَهَه.

ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ . . .﴾ الآية [٢ من ٦ سورة الأنعام] فَثَبَتَ أَنَّ لِلإِنْسانِ أَجَلَيْن. وَتَأَوَّلَها حُكماءُ الإِسْلام، على ما حَكاه الإمامُ الفَخْر [الرازي «التفسير» ١٢/ ١٥٣]؛ إِنَّ لِكُلِّ إِنْسانٍ أَجلَيْن:

أَحَدهما الآجالُ الطَّبيعِيَّة، الثاني الآجال الاخْتِرامِيَّة. فالآجالُ الطبيعيّة، هي التي لَوْ بَقِيَ المزاجُ مَصُوناً عن العَوَارِضِ الخارجِيّة، كالغَرَقِ والحَرْق ولَسْع الحشرات وغَيْرِها، لانْتَهَتْ مُدَّةُ بقائِهِ إلى الأَوقات الفلكيّة. والآجال الاخْتِراميَّة، هي الَّتِي تَحْصُلُ بسببٍ من الأَسباب الخارجيّة، كالغَرَقِ والحَرْق ولَسْعِ الحشرات.

هذا دليلهم من الكتاب.

وأما دليلهم من السنة، فاحتجوا منها بقولِهِ ﷺ: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي العُمُرِ» [«مسند الشهاب» رقم: ١٠٠]. وفي طريق آخر: «صِلْ رَحِمَكَ، يُزَدْ فِي عُمُرِكَ». وفي آخَرِ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي عُمُرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [البخاري، رقم: ٥٩٨٦]. وَحَدِيث أَبي خَيْثَمة: «لا يَزِيدُ فِي ٱلْعُمُرِ إلا ٱلْبِرُّ، وَلَا يَرُدُّ ٱلْقَدَرَ إِلَّا ٱلدّعاء، وَإِنَّ العبد لِيُحْرَمُ

ٱلرِّزْقَ بِٱلذَّنْبِ يُصِيبُهُ» [ابن حبان، رقم: ٨٧٢؛ ابن ماجه، رقم: ٩٠].

قال ابنُ عَبَّاسٍ: لِكُلِّ وَاحد أجلان: أَجَلٌ إلىٰ المَوْتِ، وأَجَلٌ مِنَ المَوْتِ إلى البَعْثِ، فإن كانَ برّاً تَقِيّاً وَصولاً للرَّحِم، زِيدَ لَهُ من أَجَلِ البَعْثَ في أجَلِ العُمُرِ، وَإنْ كَانَ ضِدَّ ذَلِكَ، نَقُصَ مِنَ العُمُرِ وَزِيدَ في أَجَلِ البَعْثِ.

هَـذا حـاصِـلُ اسْتِـدْلالِ أَهْـلِ القَـوْل الأَوّل وحُجَّتُهم.

* * *

وَٱحْتَجَّ أَهْلُ القَوْلِ الثَّاني، وَهُمُ القائِلُون بأَنَّ العُمُرَ لا يزيد ولا ينقص، بالكتاب والسنة.

فَاحْتَجُّوا من الكِتَابِ بآياتٍ:

منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ [٧١ سورة نوح/ الآية: ٤].

ومنها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [١٦ سورة النحل/ الآية: ٦١].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ [٣ سورة آل عمران/ الآية: ١٤٥].

ومنها قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾ [٥٧ سورة الحديد/ الآية: ٢٢].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ﴾ [٦٣ سورة المنافقون/ الآية: ١١].

وَاحْتَجُوا مِنَ السُّنة:

بِحَدِيث عبدالله بن مسعود: «إِنَّ المَلَكَ يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ. . .» [البخاري، رقم: ٦٥٩٤].

وبحديث: «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنْ ثَلَاثٍ» فَذَكَرَ مِنْهَا: «ٱلآجَالَ» [ابن حبان، رقم: ٦١٥٠].

وبحديث أم حبيبة، حيث قالت: اللَّهُمَّ مَتِّعْنِي بِأَبِي أَبِي سُفْيَان، وَبِأَخِي مُعَاوِيَة، وَبِزَوْجِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ لَهَا عليه الصَّلاةُ والسَّلَامُ: «لَقَدْ سَأَلْتِ ٱللَّهَ فِي آجَالٍ مَضْرُوبَة، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَا يُؤَخَّرُ مِنْهَا شَيْءٌ» [مسلم، رقم: ٢٦٦٣].

* * *

وَأَجَابوا عَنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُ﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية: ٣٩] بِعَدَمِ حَمْلِهَا عَلَىٰ العُمُوم.

فَقَالَ ٱبْنُ جُبَيْرٍ وَقَتَادَةَ: المرادُ بِالْمَحْوِ وَالإِثْبات نَسْخُ الحُكْمِ المُتَقَدِّمِ، بَدَلاً من الأَول.

قلتُ: وفيه نَظَرٌ، لأَنَّ القَلَمَ جَرَى بما هُوَ كائِنٌ إلى يَوْمِ القيامة، وَمِنْ جُمْلَةِ ذلك الحُكْمُ، فلمَّا جازَ نَسْخُ الحُكْمِ وإثباتُهُ، فكذلك العُمُر.

وقال أَبو صالح والضَّحَّاك: المرادُ بالآية، مَحْوُ مَا فِي دِيوَانِ الحَفَظَةِ، مِمّا لَيْسَ بحَسَنَةٍ ولا سَيِّئَةٍ، لِأَنَّهُم مَأْمُورُون بِكَتْبِ ما يَنْطِقُ بِهِ الإِنسانُ.

قُلْتُ: هُوَ قريبٌ، لكنَّ المرادَ لا يَدْفَعُ الإِيرادِ.

وقَال بعضُهُم: أراد بالمَحْوِ مَحْوَ الذُّنُوبِ مِنَ الصَّحائِفِ بِالتَّوْبَةِ.

وقال الحسن: يَمْحُو مَنْ حَانَ أَجَلُهُ، وَيَدَعُ ثَابِتاً مَنْ لَمْ يَحِنْ أجَلُهُ.

وقال علي بن أبي طالب: يَمْحُو مَا يَشاءُ مِنَ القُرُون، وَيُثْبِتُ مَا يَشاءُ مِنْها.

قُلْتُ: وَفِي كُلٍّ مِنْ هَذِهِ الأَجْوِبَةِ نَظَرٌ، لما مَرَّ، ولأَنَّهُ تَخْصِيصٌ مِنْ غير مُخَصِّص.

وَأَجَابُوا عن قولِهِ تَعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ..﴾ الآية، [١١ من ٣٥ سورة فاطر] بِأَنَّ المُرَادَ بِالمُعَمَّر الطَّوِيلُ العُمُر، وَالمراد بالناقِصِ قصيرُ العُمُر.

والمعنى: كُلُّ مَنْ طَالَ عُمُرُه أَوْ نَقُصَ فَهُوَ مَكْتُوبٌ في الْكِتَاب.

قال ابن حزم: فبالضرورةِ عَلِمْنَا أنَّ الَّذِي عُمِّر ثمانين عاماً نَقَصَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ عَدَد خمس مئة عام وأحد وعشرين عاماً، فَهَذا هو ظاهِرُ الآية، [ومقتضاها] على الحَقِيقَةِ. انتهى.

وفَسّرها ابن جُبَيْر بوَجْهٍ آخرَ، وَهُوَ أَنَّهُ قَالَ: مَكْتُوبٌ في أوّل الكِتَاب: عُمُرُهُ كذا أو كذا. ثُمَّ يُكْتَبُ أسْفلَ مِنْ ذلك: ذَهَبَ يَوْمٌ، ذَهَبَ يوْمان، ذَهَب ثلاثَةٌ، حَتَّىٰ يَنْقَضِي عُمُرُهُ. حكاه المفسرون عنه.

وَأَجَابُوا عَنْ قولِهِ تَعَالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [٦ سورة الأنعام/ الآية: ٢] بِأَنَّ المُرَادَ بالأَجَلِ الأَوَّلِ أَجَلُ الماضِين، وَبالأَجَلِ الثاني أَجَلُ البَاقِين؛ أَو المرادَ بالأَوَّل أَجلُ المَوْت، وبالثاني أَجَلُ الحَيَاةِ في الآخرة، لأَنَّهُ لا آخِرَ لها؛ أَوْ أَنَّ الأَجَلَ الأَوَّلَ هو ما بَيْنَ خَلْقِ الإِنْسَانِ إلى مَوْتِهِ وَالثَّاني مَا بَيْنَ مَوْتِهِ إلى بَعْثِهِ؛ أَوْ أَنَّ الأَجَلَ الأَوَّل هُوَ النَّوْم، وَالثَّاني هُوَ الوَفَاة؛ أَوْ أَنَّ الأَوَّلَ مَا ٱنْقَضَىٰ مِنْ عُمُرِ كُلِّ وَاحِدٍ، وَالثَّاني ما بقي من عمر كلِّ واحِدٍ؛ إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوالِ المُفَسِّرين.

وأَجابوا عَنْ حَدِيثِ: «صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي ٱلْعُمُرِ» [«مسند الشهاب»، رقم: ١٠٠] بأجوبَةٍ؛ فقِيلَ: المُرَادُ فِي الزِّيَادَةِ فِي العُمُرِ السِّعَةُ في الرِّزْقِ وَاليَسَارُ وَالزِّيَادَةُ فِيه، لِأَنَّ الفَقْرَ مَوْتٌ كما في الأَخبار:

إنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ أَعْلَمَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام بِأَنَّهُ يَمُوتُ عَدوُّه؛ ثم رآهُ بَعْدَ ذلك يَنْسُجُ الخُوصَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ! وَعَدْتَنِي أنْ تُمِيتَهُ! قالَ: قَدْ فَعَلْتُ، ذَلِكَ لِأَنِّي أَفقَرْتُهُ.

قُلْتُ: وَفِي هذا الجوابِ نَظَرٌ، لِأَنَّ السِّعَةِ فِي الرِّزْقِ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ في الأَزَلِ، كالعُمُرِ.

وقِيلَ: المُرادُ بالزِّيادَةِ في العُمُر نَفْيُ الآفَاتِ عَنْهُم، وَالزِّيَادَةُ فِي أَفْهَامِهِم وَعُقُولِهِم وَبَصَائِرِهِم.

قلتُ: وَفِيهِ نَظَرٌ، لِما مَرّ.

وَقِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ أَجَلَ عَبْدِهِ مِئَةَ سَنَةٍ، وَجَعَلَ تركِيبَهُ وَبُنْيَتَهُ وَهَيْئَتَهُ كَتَعْمِيرِ ثمانِينَ سَنة، فإِذَا وَصَل رَحِمَهُ زاد اللَّهُ فِي ذَلِكَ التَّرْكِيبِ وفي تِلْكَ الْبُنْيَةِ وَوَصَلَ ذلك النَّقْصِ، فَعَاشَ عِشْرِين أُخْرَىٰ حَتَّىٰ بَلَغَ المِئة ، وَهُوَ الأَجَلُ الَّذِي لا يَسْتَأْخِرُ عَنْهُ ساعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُ.

وقالَ ٱبْنُ حَزْمٍ: إِنَّما مَعْنَاهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعالىٰ، لَمْ يَزَلْ يَعْلَمُ أَنَّ زَيْداً سَيَصِلُ رَحِمَهُ، وَأَنَّ ذٰلِكَ سَبَبٌ إِلىٰ أَنْ يَبْلُغَ مِنَ ٱلْعُمُرِ كَذَا وَكَذَا؛ وَكَذَا كُلّ حَيٍّ في الدُّنْيَا، لأَنَّهُ مِنْ عِلْمِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سَيُعَمِّرُهُ كذا وكذا من الزَّمان، وأَنَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ سَيُغَذَّىٰ بِالطَّعامِ وَالشَّرَابِ، وَيَتَنَفَّسُ بِٱلْهَوَاءِ، وَيَسْلَمُ مِنَ الآفاتِ القاتِلَةِ، تِلك المُدَّة؛ ويكونُ كُلُّ ذَلِكَ سَبَباً إلى بُلُوغِهِ، تلك المدة الَّتِي لا بُدَّ مِنِ ٱسْتِيفَائِها،

فالسَّبَبُ وَالمسَبَّبُ، كُلُّ ذَلِكَ قَدْ سَبَقَ في عِلْمِ ٱللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، كما هُوَ لا يُبَدَّلُ. انتهى.

وقيل: إنَّ هَذِهِ الزِّيَادَة بالنِّسْبَةِ إلىٰ ما يَظْهَرُ للمَلائِكَةِ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظ، فَيَظْهَرُ لَهُمْ أَنَّ عُمُرَهُ سِتُّون سَنَة، إلَّا أَنْ يَصِلَ رَحِمَهُ، فَإِنْ وَصَلَها زِيدَ لَهُ أَرْبَعون، وَقَدْ عَلِمَ ٱللَّهُ مَا سَيَقَعُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ عِلْماً أَزَلِيّاً.

قال الحافظ الجلال السُّيُوطِي: قَدْ تَظَاهَرَتِ الأَحَادِيثُ وَالآثَارُ عِنْدِي عَلىٰ زِيَادَةِ الْعُمُرِ وَنَقْصِهِ بِالنِّسْبَةِ إلىٰ مَا كُتِبَ فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظِ أو بَرَزَ إلى المَلائِكَةِ، لا بالنسبة إلى مَا عَلِمَ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، فَإِنَّ عِلْمَهُ أَزليٌّ لا يَتَغَيَّرُ، وَالأَشْيَاءُ كُلُّهَا وَاقِعَةٌ عَلَىٰ وفْقِ عِلْمِهِ في الأَزَلِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَنَقْصٍ. انتهى.

قال ٱبْنُ حَزْمٍ: لَا يَكُونُ ٱلْبَتَّةَ إلَّا مَا سَبَقَ في

عِلْمِهِ أَنَّهُ سَيَكونُ، فَمَنْ يَسْأَلُ عَنِ المَقْتُولِ: لَوْ لَمْ يُقْتَلْ، أَكانَ يَمُوتُ أو يَعِيشُ؟ فَسُؤَالُهُ سَخِيفٌ فَاسِدٌ، لأَنَّهُ إِنَّما سَأَلَ لَوْ لَمْ يَمُتْ هَذا المَيْت، أكانَ يَمُوتُ، أَمْ كَانَ لا يَمُوت. وَهَذِهِ حَماقَةٌ، لأَنَّ القَتْلَ عِلَّةٌ للمَوْت، كَمَا أَنَّ الحُمَّىٰ القَاتِلَةَ وَالبَطْنَ القَاتِلَ وَسَائِرَ الأَمْرَاضِ القَاتِلَةِ عِلَلٌ لِلْمَوْتِ الحادِثِ عَنْها، ولا فرق. انْتَهَىٰ.

وَكَما أَنَّ الطِّبَّ سَبَبٌ لِلْبُرْءِ، فَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ تَصْحِيحُ الطِّبِّ، وَالأَمرُ بالعِلاجِ، وَأَنَّهُ قَالَ: «تَدَاوَوْا، فَإِنَّ ٱللَّهَ تَعَالَىٰ لَمْ يَخْلُقْ دَاءً إِلَّا خلَقَ لَهُ دَوَاءً، إِلَّا السَّامُ» والسام: الموت. [ابن حبان، رقم: ٦٠٣٢].

وَلَا اعْتِبَارَ بِاعْتِرَاضِ قَوْمٍ قَالُوا: قَدْ سَبَقَ عِلْمُ ٱللَّهِ فِي نِهَايَةِ أَجَلِ المَرْءِ وَمُدَّةِ صِحَّتِهِ، وَمُدَّةِ سقْمِهِ، فَأَيُّ مَعْنَى لِلعلاج؟!

فَيُقَالُ لهم: جَمِيعُ مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ النَّاسُ مِنَ الأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللِّبَاسِ لِطَرْدِ البَرْدِ وَالحَرِّ، وَالسَّعْي في المَعَاشِ بِالحَرْثِ وَالغرس والحِرَفِ والصَّنائِعِ وغير ذلك، وَقَدْ سَبَقَ علمُ ٱللَّهِ بِنِهَايةِ الأَجَلِ والصِّحَّةِ وَالسّقم، فَأَيُّ مَعْنَى لِذَلِكَ كلّه، إلاَّ أَنْ يَقُولوا: عِلْمُ اللَّهِ قَدْ سبق بما يكون من ذلك، وبِأَنَّهَا أَسْبَابٌ إلى بلوغ نِهَايَةِ العُمُرِ المُقَدَّر. فَنَقُولُ لَهُم: هَكَذَا ٱلطِّبُّ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ ٱللَّهِ أَنَّهُ سَبَبٌ لِلْبُرْءِ وَطُولِ ٱلْعُمُرِ، فَصَحَّ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ سَابِقٌ في عِلْمِ اللَّهِ تَعَالى.

* * *

قُلْتُ: هَذا حَاصِلُ كَلامِ الفَرِيقَيْنِ في هَذِهِ المَسْأَلَةِ وما قالوه من دَلِيلٍ وَتَعْلِيلٍ، وَهَذَا الجَوَابُ الأَخِيرُ هُوَ الحَقُّ إن شَاءَ ٱللَّهُ تَعَالىٰ، ولعلّه مرادُ كُلٍّ مِنَ الفَرِيقَيْن.

وَالخلافُ بَيْنَهُما لَفْظِيٌّ، إِذْ لَا يَسَعُ مَنْ لَهُ أَدْنَىٰ تَأَمُّلٍ أَنْ يُخَالِفَ فِي أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ تَعَالى لا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَـدَّلُ، ولا يَسَـعُ مَـنْ أَمْعَـنَ النَّظَـرَ فِـي الآيَـاتِ وَالأَحَادِيثِ الوَارِدَةِ في المَحْوِ وَالإِثْبَاتِ مِنَ اللَّوْحِ أَنْ يُخَالِفَ فِي وُقوعِ ذَلِكَ فِيهِ.

وَهَذا فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَىٰ مَزِيدِ قُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ، حيثُ يَتَصَرَّفُ في العالَمِ العُلْوِيّ وَالسُّفْلِيِّ بِمَا شَاءَ مِنْ مَحْوٍ وَإِثْباتٍ وَغَيْرِها.

وَإِنَّهُ لا حَجْرَ عَلَيْهِ فِي فِعْلِهِ، بخلافِ ما إِذَا قُلْنا بِعَدَمِ وُقوعِ المَحْوِ والإِثبات، فَيَكُونُ فِيهِ ما فيه، على ما فيه.

فتلخَّصَ أَنَّ مَا فِي عِلْمِ ٱللَّهِ تعالى لا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، وَمَا فِي اللَّوْحِ المَحْفُوظ يُغَيَّرُ وَيُبَدَّلُ ﴿يَمْحُوا

ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية: ٣٩] فتأمّل!!

فَإِنْ قُلْتَ: يَرُدُّ هَذا مَا مَرَّ نقلُهُ عن المفسِّرِين مِنْ أَنَّ اللَّوْحَ المَحْفُوظَ مَحْفوظٌ مِنَ الشَّياطِين وَمِنْ أَنْ يُغَيَّرَ أَوْ يُبَدَّلَ.

قلتُ: ذاك كناية عن صونه وحفظه، من أَن يتطرّق إليه خللٌ أو فساد، من أحدٍ من المخلوقات؛ بل الله هو الذي يمحو ويثبت، ألا تراه أَسند ذلك إلى نفسه، فقال: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾ [١٣ سورة الرعد/ الآية: ٣٩].

فإن قُلْتَ: يَرُدُّ هَذَا ما مَرَّ نَقْلُهُ مِنَ الأَحادِيث الصَّحِيحَة مِنْ أَنَّ اللَّهَ تَعالىٰ لَمَّا خَلَقَ القَلَمَ كَتَبَ مَقاديرَ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا هُوَ كَائِن إلىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَالْمُثْبَتُ بَعْدَ المَحْوِ لَمْ يُكْتَبْ إلَّا بَعْدَ المَحْوِ، فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ مَقادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حِينئذٍ.

قُلْتُ: هُوَ قَوِيٌّ؛ وَجَوَابُهُ: إِنَّ المُثْبَتَ بَعْدَ المَحْوِ كانَ مَوْجُوداً فِيهِ، ولٰكِنَّ اللَّهَ لم يُطْلِعْ عليه المَلائِكَةَ إلا بَعْدَ إِثْبَاتِهِ. فَعَلَى هذا، فَالمَحْوُ والإِثبات إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إلى الملائِكَةِ المُوَكَّلِين باللَّوْحِ بحسبِ ما يتراءَىٰ لَهُم، فَيَكُونُ ذٰلِكَ لَهُمْ عِبْرَةً تامَّةً، وحكمةً بَالِغَةً، مِنْ أَنَّ الله تَعالىٰ هُوَ المُتَصَرِّفُ التَّصرُّف العام المُطْلَق مِنْ غَيْرِ مُعارِضٍ له، لا إله إلا هو، يَفْعَلُ مَا يَشاءُ، وَيَحْكُم ما يُرِيدُ، فتأمل!!

فإِنِّي لَمْ أَرَ في كلامِهِم، مَنْ صَرَّح بهذَيْن السُّؤَالَيْن وجوابِهِما، والحامِلُ لِي عَلىٰ ذِكْرِهِما دَفْعُ اعْتراض ما عَساهُ أَنْ يَرِدَ علىٰ مَا حَقَّقَهُ الحافِظُ السُّيُوطِي تَبَعاً لِجَماعَةٍ مُحَقِّقِين، جَامِعِين بَيْنَ ما وَرَدَ مِنَ الأَحَادِيث والآيات المُتَعَارِضَة؛ فَافْهَم، وَاللَّهُ سبحانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلَم.

خَـاتِـمَة

وَقَعَ فِي كَلامِ بعضه العلماءِ مِنْ أَهْلِ التَّصَوّفِ وَغَيْرِهِم:

ٱعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَا قَدَّرَ ٱللَّهُ تَعَالىٰ، مِنْ ٱبْتِدَاءِ العَالَم إلىٰ آخِرِه، مَسْطُورٌ مُثْبَتٌ في اللَّوْحِ المحْفُوظِ، وَهُوَ لَوْحٌ لا يُشْبِهُ لَوْحَ الخَلْقِ، وَثُبُوتُ المَقَادِير في هَذَا اللَّوْحِ تُضَاهِي ثُبُوتَ كَلِمات القُرْآن في دِماغِ حَافِظِهِ، حَتّىٰ كَأَنَّهُ يَقْرَؤُهُ وَيَنْظُرُ إِلَيْه، فَلَوْ فَتَّشْتَ دِماغَهُ، لم تُشَاهِدْ شَيْئاً، فَاللَّوْحُ كَمِرْآةٍ تَظْهَرُ عنها ٱلصُّوَرُ.

وَالقَلْبُ إِذَا تَخَلَّصَ مِنَ الشَّوَاغِلِ، وَكَانَ صَافِياً جَوْهَرُهُ؛ ٱرْتَفَعَ الحِجَابُ بَيْنَه وَبَيْنَ اللَّوْحِ المَحْفُوظِ،

فَوَقَعَ فِيهِ شيءٌ مِمّا في اللَّوْحِ، كَمَا تَقَعُ الصُّورَةُ عَنِ مِرْآةٍ أُخْرَىٰ.

ثُمَّ إنَّ لِقَلْبِ الإنسانِ عَيْنَيْن، عَلَيْهِما غِشَاوَةٌ كَثِيفَةٌ من شهواتِهِ وأَشْغالِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَصَارَ لا يكادُ أَنْ يُبْصِرَ شَيْئاً مِنْ عَجَائِبِ الغَيْبِ وَالمَلَكُوت مَا لَمْ تَنْقَشِعْ تِلْكَ الغِشَاوة عَن عَيْنَي قَلْبِهِ، وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الغِشَاوةُ مُنْقَشِعَةً عَنْ أعْيُن الأَنْبياء وبَعْضِ الأَوْلِياء، فلا جَرَمَ أَنَّهُم نَظَرُوا إِلىٰ المَلَكُوت، وشاهَدُوا عَجَائِبَهُ، وشاهَدُوا المَوْتَىٰ في عَالَمِ المَلَكُوت، وأَخْبَرُوا عَنْهُم.

وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَعْلم، وَعَلىٰ رَسُولِهِ محمدٍ صَلّىٰ وسَلَّمَ؛ وعلىٰ سَائِرِ إخْوانِهِ من النَّبِيِّين والمُرْسَلِين، وآلِ كُلٍّ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

* * *

قال مؤلِّفُهُ الحقير مرْعي بن يوسُف الحَنْبَلي:

لَخَّصْتُ هَذِهِ الرِّسَالة مِنْ كتابي «بهجة الناظرين» وَكتابي «أَرواح الأَشباح» في يومي السبت والأَحد في العشرين من رمضان سنة **١٠٢٢**.

يَتْلُوهُ كتاب «تحقيق الخلاف في أصحاب الأَعراف».



الفهـــرس

